القتال في غزة: كيف ينتهي؟ (وهل سينتهي؟)

بقلم أنطوني كوردسمان / مركز الدراسات الدولية والإستراتيجية

5 كانون الثاني، 2009

القتال في غزة هو الآن مأساة بشرية كبرى بالنسبة للفلسطينيين. إنه متشكل من تأثير إستيلاء حماس على غزة، إرث الإرهاب والهجمات الصاروخية على إسرائيل، والتوترات السياسية الداخلية الفلسطينية والإسرائيلية التي جعلت من مسألة البحث عن السلام مجرد خطاب فارغ. أما السؤال الأساسي فهو ما إذا كانت هذه المأساة، والضحايا والأضرار من الجانبين، يمكن أن يكون لها أية نتيجة إستراتيجية ذات معنى. هل سيكون هذا الأمر، وببساطة، ذروة عنف أخرى ضمن عملية صراع مستمرة أم أنه يمكن لكلا الجانبين، بالفعل، التحرك بإتجاه شكل ما من أشكال النتائج المستقرة.

إلتزام إستراتيجي بالنسبة للولايات المتحدة

هناك أمر واحد مؤكد. لقد أصبح القتال إلتزاماً إستراتيجياً بالنسبة للولايات المتحدة. ليس هناك من جواب جيد عن مستوى القوة " المناسب" في هذا النوع من الحرب اللامتماثلة. ليس هناك من معادلة يمكن أن تقرر كم عدد عمليات إطلاق الصواريخ والأعمال الإرهابية التي تبرر مستوى معلوم من الضربات الجوية أو إستخدام قوات برية تقليدية. فالحقيقة القائلة بأن الضعيف يعاني أكثر من القوي في الحرب هي حقيقة صارمة، كما هي الحقيقة بأنه ليس من قوة ستتقبل الإرهاب لأن أفضل خياراتها العسكرية ينتج عنها ضحايا مدنيين.

مع ذلك، فقد دُفعت الولايات المتحدة، مرة أخرى، لتكون المدافع الوحيد عن إسرائيل في محيط دولي حيث من الأسهل كثيراً (وأربح) إتخاذ جانب العرب بدلاً من السعي لأي شكل من أشكال التوازن. فالإعلام العربي والإسلامي ومراكز الأبحاث تقوم بإبراز القتال الآن على أنه تمكين لإسرائيل بواسطة الدعم الأميركي لها والأنشطة الأميركية في الأمم المتحدة، وهذا هو حكم معظم المؤسسات الإعلامية والفكرية في أوروبا وخارج الولايات المتحدة.

بدأت حركات إسلامية متشددة متطرفة، حزب الله، إيران، وأعداء آخرين للولايات المتحدة، بإستثمار القتال. علاوة على ذلك، أصبحت حكومات عربية معتدلة أهدافاً كالولايات المتحدة. هذا الأمر يدفع أنظمة عربية كهذه – التي لا تكن حباً لحماس أكثر مما تكنه إسرائيل أو الولايات المتحدة – لأن يضعوا أنفسهم على مسافة من الولايات المتحدة ودعم فتح وإقتراحات السلام من جانب الجامعة العربية. كما يضع هذا الأمر ضغوطاً جديدة على مفاوضات السلام الإسرائيلية – السورية.

سواء كان هذا عدلاً أم لا، فإن هذه المواقف تعززها حقيقة أن إقتراحات إدارة بوش لوقف إطلاق النار تم ربطها بوقف حماس لكل الهجمات على إسرائيل، الأمر الذي ينظر إليه على أنه ضوء أخضر واقعي لإسرائيل، مع ذكريات لمقاربات أميركية مشابهة في الدعوة لوقف إطلاق النار في لبنان. وقد أضعف "صمت" الرئيس المنتخب أوباما الآمال بشأن

مقاربة أميركية جديدة كما أضعفها تعيين السيناتور كلينتون كوزيرة خارجية مقبلة – بالرغم من أن النظر الى السيناتور كلينتون كمؤيدة لإسرائيل يعني تجاهل الحقيقة بأنها كانت من بين أوائل من نادوا بجعل فلسطين دولة كاملة السيادة.
على المرء ألا يبالغ بتأثير ردات الفعل هذه. فهي تؤكد الغضب والمواقف القديمة، لكنها، وبالفعل، تعقد في النهاية الدور الأميركي في الحرب على الإرهاب، في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، في التعامل مع قضايا كإيران والعراق، وفي مكافحة طالبان والتعامل مع باكستان إسلامية. على المرء أن ينتظر النتيجة ليرى مدى تأثير القتال على إستطلاعات الرأي العام، إلا أن الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني كان ، وعلى الدوام، أحد المشاكل الثلاث الكبرى لدى الولايات المتحدة في تعاملها مع الدول العربية والإسلامية - يضاهي في أهميته حرب العراق والمفهوم بأن الحرب الأميركية على الإرهاب هي ضد العرب والإسلام.

ما مدى فعالية جيش الدفاع الإسرائيلي ضد حماس ؟

إن ما لايمكن التنبؤ به كثيراً هو ما إذا كان بإمكان إسرائيل صنع مكاسب دائمة، و / أو ما إذا كان القتال سينتهي الى أي شيئ يقترب إما من السلام أو توقف طويل الأمد للقتال. على المرء ألا يسيئ تقدير النجاح الإسرائيلي بالمصطلحات العسكرية الصرفة. فسلاح الجو الإسرائيلي قام بما يقرب من 150 غارة في 27 كانون أول، اليوم الأول من القتال، وأكثر من 100 غارة على مدى الأيام الثلاثة التالية. وقامت حماس، وبسرعة، بنشر كل من فرقها وأسلحتها وتجهيزاتها، إلا أن سلاح الجو إستمر بالحصول على دعم إستهداف ممتاز بواسطة طائرات من دون طيار ومن موجودات إستخبارية تقنية أخرى، وكذلك بالحصول على دعم من عناصر مناهضة لحماس داخل وخارج غزة.
قد لا يكون سلاح الجو الإسرائيلي قادراً على العثورعلى كل هدف وضربه، وكذلك العثور على بعض الأنفاق والمناطق المحصنة، لكن حماس فقدت، وهذا واضح، بعض القادة الأساسيين وهي تخسر معظم مرافقها الأساسية والكثير من تجهيزاتها. قد يكون بمقدورها إطلاق عدد محدود من الصواريخ الى أجل غير مسمى في المستقبل، لكنها ستخسر كمية لا بأس بها من أسلحتها، بالإضافة الى مرافق التدريب والإتصالات.
وبشكل مساو، من الخطورة التقليل من أهمية العمليات البرية. فحماس ليست حزب الله. فهي لم تقاتل جيش الدفاع الإسرائيلي لسنوات. فقواتها محدودة التدريب والخبرة، ولا يبدو بأنه حصلت على أي شيئ يشبه توصل حزب الله الى حيازة أسلحة طواقم وقابلة للحمل أكثر حداثة وإهلاكاً – بالرغم من أنه قد تكون تمتلك في إحتياطها، بالفعل، بعض الأسلحة الموجهة المضادة للدبابات وبعض صواريخ أرض – جو القابلة للحمل. أما بالنسبة لكل الحديث عن صعوبات القتال من بيت الى بيت، فمن المهم الإشارة الى أن معظم الحرب المدينية تنتهي بسرعة إلا إذا كان لدى كلا الجانبين تجهيزات قتالية وقدرات دعم واسعة وعظيمة، كما أنه من المهم الإشارة الى أن المدافعين المتمردين يتلقون خسائر ضخمة نسبة الى المهاجم.
قد تتسبب حماس بسقوط إصابات خلال بضع صدامات، لكنها لم تثبت حتى الآن بأن بإمكانها أن تجمع معاً أي نوع من المقاومة الفلسطينية الواسعة تمتلك أية فعالية. هذا الأمر قد يتطلب من داعمي فتح القيام بدعم حماس بشكل حاسم.، وحتى الآن، تبدو فتح أكثر إستعداداً للإنتظار والإستفادة من أية هزيمة إسرائيلية لحماس. هذا الوضع غير مستقر، كما أن مقاومة فلسطينية ضخمة ستكون أكثر من مجرد تحدٍ لجيش الدفاع الإسرائيلي بكثير وستخلق ردة فعل سياسية أكبر بكثير نتيجة للضحايا المدنيين والأضرار الملازمة الموازية للحرب. في كل الأحوال، من المهم الإشارة الى أن هذا إحتمال وليس أرجحية.
علاوة على ذلك، إن جيش الدفاع الإسرائيلي ليس بحاجة للقتال وفق طريقته في كل معقل من معاقل حماس. بإمكانه تأمين وعزل نقاط قوية كهذه، مهاجمة فقط تلك النقاط القوية ذات القيمة الأساسية، وإستخدام القوة الجوية بدلاً من حرب الشوارع. إن المشاكل التي واجهها جيش الدفاع الإسرائيلي لأنه كان ملتزماً بحرب ساكنة وثابتة ضد مناطق محصنة بشكل أفضل بكثير على طول الحدود الإسرائيلية – اللبنانية ليست مطبقة في غزة، كما أن إسرائيل كان لديها عامين لإعادة التدرب وتحسين قدراتها لحرب مشتركة. وفيما عدا تكرار قيادتها السياسية لأخطاء 2006، فإن إسرائيل ليست بحاجة لأن تقاتل بالطريقة الخاطئة لحرب مدينية.
وفي حين أن على المرء ألا يحكم على نتيجة أي صدام أو على سلسلة معارك قبل إنتهائها، فإن السؤال الأكثر جدية سيكون ما إذا كانت النجاحات التكتيكية لجيش الدفاع الإسرائيلي لها قيمة إستراتيجية دائمة، وما إذا كانت ستنتج أي نوع من النتائج السياسية المستقرة. إن الصمت الأصم للحكومة الإسرائيلية في وصف الأهداف الأوسع التي تقف خلف العمليات الإسرائيلية يرفع تساؤلات أكثر جدية من عملياتها العسكرية حتى تاريخه.

خطوة أخرى بعد في "عملية حرب" تتصاعد لتصل الى لا مكان؟

ليس بإمكان إسرائيل تحقيق السلام أو حتى إستقرار سياسي بتحويل غزة الى مخيم سجن فلسطيني مهزوم ميؤوس منه أكثر مما هو عليه الآن. في كل الأحوال، كان هذا الأمر النتيجة النهائية لكل إنفجار قتال حتى تاريخه.

في كل الأحوال، وبالنسبة لكل الحديث عن "عملية السلام"، فإن التاريخ كان عبارة عن "عملية حرب" أكثر منه "عملية سلام". فالسؤال الوحيد وحتى تاريخه هو متى بدايتها: العنف العربي قبل الحرب العالمية الثانية، حرب 1948، الدور الفلسطيني السلبي الى حد كبير في الصراعات العربية – الإسرائيلية تشمل حرب مع دول عربية، نزاعات ما بعد 1967 بين حركة فلسطينية صاعدة وإسرائيل، الإنتفاضة الأولى، أو الصراع الأكثر خطورة الذي بدأ مع زيارة شارون الى "قبة الصخرة" في العام 2000 وخيار عرفات بالرد بالعنف.

حتى توقيع إتفاق أوسلو في العام 1993 يمكن إعتباره على أنه أصبح في النهاية إمتداداً لحرب بوسائل أخرى. وكما قال أحد المحللين العسكريين الإسرائيليين بعد وقت قصير من إغتيال رئيس الوزراء رابين،" لن تروا سلاماً مقابل الأرض، سترون مستوطنات مقابل الإرهاب." لقد كان الثمن الإنساني المباشر باهظاً. فدورة الصراع الجديدة التي بدأت في الـ 2000 تنوعت بشدتها وكثافتها ووصلت الى ذروتها في العام 2002 مع سقوط أكثر من 1000 فلسطيني و 400 إسرائيلي قتلى فيها. في كل الأحوال، فإن دورة الصراع هذه لم تنتج، مقتل أقل من 200 فلسطيني ما بين عامي 2000 و2008 أبداً، كما أن الإنخفاض الحاد في عدد القتلى الإسرائيليين من العام 2004 وحتى الآن جاء على حساب إسرائيل المحاطة عملياً بالحواجز الأمنية وزيادة مشاكلها في التفاوض حول سلام حقيقي بشكل كبير.

السجن سابقاً ولاحقاً؟

فعل إنقلاب حماس في غزة في حزيران 2007 - إنقلاب نجح كثيراً بسبب عدم الكفاءة والحماقة الكاملة تقريباً لقوات فتح مقابل قدرات حماس – فعله في تعزيز "عملية الحرب" على حساب عملية السلام. في كل الأحوال، بدأ القتال بظل حكم عرفات وفتح ومن غير الواضح كثيراً أن لا يترك أي إنحدار بحظوظ حماس غزة سجناً ملتهباً من دون وجود آمال إقتصادية واضحة ومن دون دولة ذات معنى.

لقد كان هذا الأمر حتى الآن البعد المنسي للحرب. فالقضية ليست فقط الضحايا المدنيين في القتال؛ إنها الإفتقار لأية مصداقية مستقبلية بالنسبة لغزة. من السهل تناسي 1.5 مليون إنسان تم حشرهم في مقاطعة صغيرة محوطة مساحتها 360 كلم مربع فقط، معزولة بحدود طولها 51 كلم مع إسرائيل و11 كلم مع مصر، وبشريط ساحلي يبلغ 40 كلم من دون مرفأ حقيقي تسيطر على مياهه البحرية الإسرائيلية. لم يكن لغزة مطار مدني عامل على الإطلاق، ومنذ العام 2000، تملك غزة قدرة مؤقتة بخصوص إنتقال مواطنيها بالنسبة للدخول والخروج.

شهدت غزة أيضاً إنحداراً في المعايير التعليمية وفي الفرص المهنية لشعب شاب بشكل إستثنائي. فحوالي 45% من سكانها هم بعمر الـ 14 أو أصغر، ليصبح ما يقرب من 40000 رجل وإمرأة مؤهلين للدخول في القوة العاملة كل عام حيث تقدر الـ CIA وجود ما مجموعه 300000 من البالغين العاملين الناضجين.

وقد تراوحت البطالة بما يقدر بـ 40% على الأقل منذ عام 2006. أما النتيجة النهائية فهي أن معظم أولئك الذين يقومون بعمل (70%) يعملون فقط من جراء المساعدات والإعانات ويقومون بذلك بالعمل في صناعات خدماتية ذات قيمة إقتصادية ضئيلة أو التي لا قيمة إقتصادية لها حتى في دولة فلسطينية مستقبلية. فليس لدى غزة مصانع تنافسية تخصها، كما أصبح إقتصاد إسرائيل مستقلاً عملياً عن العمالة الغزاوية وتمت هيكلته للتخلص من روابط إقتصادية معها مستقبلاً.

أما المياه والمشاكل الأخرى فقد حدَّت بشدة من الزراعة الغزاوية، الزراعة التي تأثرت بشدة بسبب قتال سابق والتي لم توفر سوى 8% من إجمالي الإنتاج القومي (GNP) قبل حدوث هذا القتال الأخير.

في حين أن مزاعم كهذه هي سياسية ومتحيزة، فإن المصادر المؤيدة للفلسطينيين تزعم بأن معدل الدخل اليومي للفرد في قطاع غزة هو حوالي دولارين يومياً، وبأن نسبة البطالة وصلت الى 70% قبل القتال الدائر حالياً في حين إرتفعت نسبة الفقر الى 80%. كما تزعم هذه المصادر بأن مليون فلسطيني في غزة يعيشون على المساعدات المتواضعة التي تقدمها الأنروا ومنظمة الفاو بالإضافة الى مساعدات أخرى من منظمات عربية وإسلامية خيرية؛ يعاني 60% من أطفال غزة من الأمراض بسبب سوء التغذية؛ ويحصل 70% من السكان على المياه لمدة 8 ساعات يومين في الأسبوع. كما تزعم المصادر بأن 140000 من العمال الفلسطينيين إنضموا الى خط البطالة وبأن 3900 مصنع ومشغل ومخزن أُقفل منذ عام 2000.

من المحتمل أن تكون مزاعم كهذه هامة بسبب تأثيرها السياسي أكثر منه بسبب صدقيتها الإقتصادية، لكنها صحيحة الى حد واسع في الإشارة الى أن غزة هي حاليا مسؤولية وإلتزاماً، وليس ذخراً، لأية دولة فلسطينية مستقبلية. إن البنك الدولي غير منحاز وقد حذر من إنهيار إقتصادي في غزة في 2007، وبأنها واجهت أزمة سيولة وإنهيار نظامها المصرفي قبل أسابيع فقط من جولة القتال هذه. كما يبدو صعباً التصديق بأن أية نتيجة عسكرية تترك غزة أكثر تضرراً بكثيرمما تعرضه هذه الأعداد حتى سينشأ عنها شعب ليس بأكثر عداء لإسرائيل، ورجالها ليسوا أكثر عرضة للتطرف والإرهاب – بصرف النظر عن التأثير المباشر ما بعد الحرب على حماس.

كيف يمكن للقتال أن ينتهي: تغيير النتيجة المحتملة

من الواضح بأن هناك أرجحيات عالمية حقيقية بحيث أن المكاسب التكتيكية الإسرائيلية الأكثر جدية لن تقوم بشيئ أكثر من عزل غزة الأضعف حتى. ومن الواضح بشكل مساو حتى بأنه إذا صمدت حماس فعلاً، فإنها لن تكون أقوى، وذلك يعود ببساطة الى قدرتها على إستثمار المعاناة التي ساعدت في خلقها، أو الى أن العالمين العربي والإسلامي لن يصبحا أكثر غضباً في الوقت الذي تتزايد فيه المعاناة الفلسطينية المستمرة سوءاً.

بإمكان المرء الإعتماد على الخطاب الدولي والإلتزام بالعكس، لكنه أثبت على الدوام فراغه في الماضي. بإختصار، إن الجواب الأرجح على سؤال الكيفية التي سينتهي بها القتال هو أنه لا ينتهي. وإذا كان الأمر كذلك، فإن المخاطر تتعدى إسرائيل. فهي ستقوي إيران وحزب الله أكثر حتى ولو لم يقوموا بجهود رمزية أو حقيقية لدعم حماس بفعالية. فهم سيساعدون القاعدة ومن على شاكلتها. سيقسمون الأنظمة العربية المعتدلة عن شعوبها، يعززون الغضب العربي ضد الولايات المتحدة، ويجعلون الحلول الطويلة الأمد والدائمة للصراع العربي- الإسرائيلي أكثر صعوبة حتى.

هناك أربع خيارات لتغيير هذا الوضع. كل خيار من هذه الخيارات يمكن مواصلته بشكل مستقل عن الآخر، لكن كل واحد منه يعزز الآخر بشكل متبادل كما أن المستوى المنحرف للمشاكل في غزة قد يتطلب مقاربة مركزة.

أولاً، إعادة تقديم حكومة فتح في غزة. إذ لم يكن واضحاً مطلقاً بأن حماس ستتفاوض بجدية مع إسرائيل أو فتح. ويبدو الأمر أقل ترجيحاً الآن. وبحسب تقرير لـ ABC ، فقد رد محمود الزهار، القائد السياسي من الصف الثاني في حماس، بما يخص القتال بالتالي،"... بقتلكم أطفالنا فإنكم تشرِّعون لنا قتل أطفالكم؛ بقصفكم مساجدنا فإنكم تشرِّعون لنا قصف كُنسكم، بقصفكم مستشفياتنا تشرِّعون لنا قصف مستشفياتكم... سنظل على الطريق الصحيح حتى تحرير كل فلسطين. هذه هي الضريبة التي ندفعها ثمناً للنصر. نحن نقول لكل الناس الذين تظاهروا في كل أرجاء العالم ضد الإعتداء بأننا لن نخذلهم. لقد أثبتت شعوب العالم بأنها لا تدعم سياسات حكوماتها وحكامها. نحن نحيي رجال المقاومة. إننا نؤسس لمستقبل من دون إحتلال، إعتداء أو قمع. إن العدو الإسرائيلي قد كتب بإعتدائه فصله المقبل في العالم الذي لن يكون فيه مكان له... نحن نتمسك بالوحدة الوطنية ونحذر المتعاونين مع العدو المحتل من محاولة القيام بأية مخططات. إني أدعو كل أفراد الشعب الفلسطيني الى إظهار التكاتف ومساعدة بعضهم البعض. لقد أثبتت المؤامرات في الأمم المتحدة بأنها تعمل ضد الشعب الفلسطيني. نحن واثقون بإنتصارنا والله لن يخذلنا."

إن إحتلالاً إسرائيلياً سيكون بمثابة كابوس لكلا الجانبين. ففتح التي تشوبها العيوب، إلا أنها فلسطينية، قد تحسنت منذ أيام عرفات، وحتى لو جاءت نتيجة نشاط لجيش الدفاع الإسرائيلي، فإنها أكثر شرعية بكثير وتقدم آمالاً أكبر. إن حكومة كهذه لا يمكنها إجراء إنتخابات، لكن بإمكانها الفوز بالدعم من خلال المساعدات، ببساطة، عن طريق فتح باب الأمل أمام غزة.

ثانياً، الإندفاع ببرنامج مساعدات دولية ضخم. فلا يمكن جعل غزة كياناً قابلاً للحياة، لكن بالإمكان تحسين ظروف الحياة بشكل هائل بالإندفاع في مساعدات إقتصادية، وبخلق وظائف إعادة إعمار قصيرة الأمد حتى، بتحديث وتحسين النظام التعليمي، وبالمساعدة على إنشاء قوى أمنية فعالة وإرساء حكم القانون. إن جهداً كهذا سيقدم أيضاً للولايا ت المتحدة والدول العربية المعتدلة الفرصة لإظهار إهتمامهم الحقيقي بشأن مستقبل غزة، كما يعطي أوروبا القدرة على التصرف بما تعتقد به.

ثالثاً، إحياء عملية السلام. من المغري التراجع عن جهود سلام أميركية وخارجية في وقت لا السياسات الفلسطينية ولا الإسرائيلية تدعم السلام، أو تقديم إيماءات بدلاً من الجوهر. في كل الأحوال، إن مجهوداً كبيراً وبارزاً بشدة هو فقط ما يمكن أن يكون له تأثير مع ما هو معلوم من الجهود الفارغة منذ العام 2000.

رابعاً، إنشاء دولة فلسطينية محدودة. وبصرف النظر عن مدى جدية مفاوضات السلام الجديدة، يبدو من المرجح أن تكتشف جهوداً كهذه بأن أية تسوية نهائية هي تسوية صعبة كما كان الحال في الماضي، وبأنها ستستغرق وقتاً قبل

إنجازها. لذلك، فإن الطريقة الوحيدة للتحرك قدماً ستكون بتجاوز الحكمة المعهودة وإعطاء الفلسطينيين سيادة محدودة قبل عملية السلام – بالمحافظة على كل الضرورات الأمنية لإسرائيل لكن برفع أية حكومة فلسطينية تكون قد إعترفت بإسرائيل وإلتزمت بمفاوضات سلام وصولاً الى الوضع الذي يمكن أن تتمثل فيه في المنظمات الدولية، التعامل مع إسرائيل على أساس سيادي، ولديها خيارات كمنح جوازات سفر لفلسطينيين يعيشون الآن في غزة والضفة الغربية.
هذه الخيارات تتطلب مستوى من الرؤية والتنسيق الدولي الذي قد تكون تفتقر إليه بالفعل. وهذه الخيارات أيضاً ليست الدواء الشافي لجميع العلل والتي تضمن بأنه سيكون هناك نهاية ذات معنى لهذه الجولة من القتال. في كل الأحوال، يبدو من غير المرجح كثيراً أن يكون بإمكان أي مقدار من النجاح الإسرائيلي – بحد ذاته - وضع نهاية لعملية الحرب. حان الوقت للتطلع الى ما بعد القتال والإستفادة من كل خيار آخر متوفر.